دور المضامين الثقافية في ترسيخ الهوية الجزائرية

The role of cultural contents in the consolidation of Algerian identity

د. فاطمة سعدون
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الأداب واللغات
جامعة محمد لمين دباغين سطيف2– الجزائر

الملخص:

تعد الثقافة مجموعة العادات والتقاليد والقيم المشتركة والخصائص التي تجمع مجموعة من الأفراد، وهي نسق اجتماعي عام يتفاعل مع أنساق فرعية، مما يجعلها متغيرة قابلة للتعديل زمانيا ومكانيا، فهي إذن وعي الذات وتفاعلها في حيز المتغيرات الاجتماعية والإنسانية، ولعل هذا ما يجعل الثقافة مرتبطة بالهوية، ذلك أن الهوية هي مجموعة الخصائص التي يمكن للفرد من خلالها أن يعرف نفسه في علاقته بالمجموعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، ويتميز عن باقي الأفراد في المجموعات الاجتماعية الأخرى، فهي تلك السمة المنغرسة في الذات والمميزة لها في الآن ذاته، ولئن كانت الثقافة والهوية ميزتان أساسيتان للفرد، وصورة عن وعي الذات في مواجهة التغييرات الطارئة على العالم في ظل العولمة، فكيف أسهمت المضامين الثقافية في ترسيخ الهوية الجزائرية؟ وهل يمكن الحديث عن خصوصية لهذه الهوية في مواجهة التحديات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بعالم يسعى إلى دحض الخصوصيات وترسيخ مبدإ العولمة؟

الكلمات المفتاحية:

المضامين الثقافية – الهوية – الثقافة – العولمة

Abstract :

Culture is a set of customs, traditions, shared values and characteristics that bring together a group of individuals. It is a general social context that interacts with sub-patterns, making them temporally and spatially changeable, so it is self-awareness and interaction in the space of social and human variables. Perhaps this makes culture associated with identity, since identity is the set of characteristics through which an individual can identify himself in his/her relationship of the social group to which he belongs and is distinguished from the rest of the people in other social groups. It is that self-centered and distinctive trait. At the same time, while culture and identity are fundamental characteristics of the individual and a form of self-awareness in the face of changes to the world under globalization, how did the cultural implications contribute to the consolidation of Algerian identity? Is it possible to talk about the specificity of this identity in the face of social and cultural challenges associated with a world that seeks to refute the specifics and establish the principle of globalization?

Keywords:

Cultural implications - , Identity - culture - , globalization

مقدمة

إن الحديث عن الهوية الثقافية في عصرنا الحالي هو بمثابة البحث عن الخصوصية الهوياتية في ظل متغيرات العالم وتطوراته المرتبطة بحداثة المفاهيم والأفكار، وتكنولوجيات التواصل والاتصال، التي غيرت معالم عديدة في المجتمعات نتيجة للعولمة التي شكلت تهديدا على الهوية في ظل ما تواجهه من تأثيرات من ثقافات وأفكار وسبل عيش مختلفة. وقد شكلت العولمة نمطا مختلفا للمجتمعات العربية نظرا لما فيها من تضارب مع خصوصية الهوية العربية، مما جعل التركيز على ترسيخ الهويات مبدأ لا بد من انتهاجه لاسيما في تكوين الفرد عقليا وفكريا، لهذا كان للمضامين الثقافية دور بارز في ترسيخ الهوية، كونها تشتغل

على عدة محاور تنمّي الفرد وتجعل له حضوره الخاص المميز في ظل التنوع الإنساني عامة والهوياتي خاصة. وقبل الحديث عن دور المضامين الثقافية في ترسيخ الهوية الجزائرية لابد من تقديم بعض المفاهيم المتعالقة في هذا الموضوع وهي الثقافة والهوية والهوية الثقافية.

أولا: مفهوم الثقافة:

لعل مفهوم الثقافة من المصطلحات التي لا يحدها تعريف واحد، فهو مرتبط بعدة مجالات إنسانية وفكرية، كما تطور مفهومه عبر الزمن، ويرجع تعريف الثقافة اللغوي إلى الحذق والفهم، "فثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقا خفيفا"[1]، كما تفيد سرعة التعلم، ففي معجم العين "والثَّقْف مصدر الثقافة، وفعله ثَقِفَ إذا لزم، وثقفت الشيء وهو سرعة تعلمه، وقلب ثَقْفٌ أي سريع التعلم والتفقه"[2]. ولعل المعنى المعجمي للثقافة هو ما استعمل للدلالة على الحذق والفطنة والمهارة والجودة والإدراك[3]، في حين أن مفهومها الاصطلاحي يرجع إلى أنها مجموعة العادات والتقاليد والقيم المشتركة والخصائص التي تجمع مجموعة من الأفراد، "فالثقافة، أو الحضارة، بمعناها الاثنوغرافي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى، التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع"[4]، فهي إذن كل ما يمكن أن يكتسبه الفرد من محيطه الاجتماعي والفكري والديني، كما تعرف بوصفها "كل تصرف أو ممارسة يكتسبها الإنسان الذي يعيش في المجتمع "[5]، لذلك فالثقافة خاصية اجتماعية بالدرجة الأولى إذ تعد نتاجا تراكميا لخبرات الفرد ضمن المجموعة، ذلك أن "قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميزه عن باقي المخلوقات، فالعادات والتقاليد والأفكار التي يشارك فيها أفراد المجتمع، والتجارب التي يمر بها الإنسان تستقر في أعماقه، ويستخدمها المجتمع جيلا بعد جيل، ويحولها إلى قيم وتراث جماعي"[6].

إن استخدام المجتمع للثقافة جيلا بعد جيل يكسبها صفة التطور والتكامل، من حيث خضوعها للمتغيرات الحاصلة في المجتمع والمؤثرة على الأفراد، ولكن صفة التكاملية والتطورية

لا تعني إلغاء الخصوصية، بل إن هذا الانفتاح المرتبط بالتغيرات يشترط فيه عدم المساس بالهوية، ذلك أن التثاقف تنمية للوعي الإنساني في دائرة الهوية الثقافية. مما يجعل الثقافة هي " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي يولد فيه"[7]، ولأن أسلوب الحياة الجزائرية قد عايش عدة تغيرات، فإن ثقافة الفرد الجزائري قد كانت تابعة لهذه التحولات، وهو ما انعكس على المجتمع عامة، وأضحى السبيل إلى ترسيخ الهوية الثقافية ضرورة حتمية.

ثانيا: الهوية:

لعل من أهم ما عرفت به الهوية لغويا أنها "مشتقة من الهو، كما تشتق الإنسانية من الإنسان، وهي أساس ما يبقى دائما ثابتا، بالرغم مما يطرأ عليه من تغيرات فالجوهو هو وإن تغيرت أعراضه"[8]، أما في الاصطلاح فهي "حقيقة الشيء في تميزه عن غيره من الأشياء"[9]، كما تعرف بوصفها "مجموعة المميزات الجسمية والنفسية والمعنوية والقضائية والاجتماعية والثقافية التي يستطيع الفرد من خلالها أن يعرف نفسه، وأن يقدم نفسه، وأن يتعرف الناس عليه، أو التي من خلالها يشعر الفرد بأنه موجود كإنسان، له جملة من الأدوار والوظائف التي من خلالها يشعر بأنه مقبول ومعترف به كما هو من طرف الآخرين، أو من طرف جماعته أو الثقافة التي ينتمي إليها"[10].

وتنقسم الهوية في تصنيفها إلى ثلاثة أصناف:

الهوية الفردية: وهي ما ترتبط بالفرد الواحد؛ وهي التي يستمدها من المجتمع، ذلك أن الأنا لا يمكن لها أن تتمظهر إلا في مقابل الآخر، وهوية الفرد تظهر من حيث المجتمع الذي يتواجد فيه. مما يؤدي إلى "أن يشعر الإنسان بأنه يجد أجوبة لمطالبه، وبأن الجماعة تعترف له بوظيفة وموقع كأي شخص يتخذ وجوده معنى ما"[11]. وعليه فالهوية الفردية هي ما يرتبط بالشخصية،

الهوية الاجتماعية: وهي تلك الهوية التي تقوم على الانتماء للجماعة، ذلك أن "بناء الهوية يتم داخل الأطر الاجتماعية التي تحدد موقع الأعوان وتوجه في الوقت نفسه تمثلاتهم وخياراتهم، وفضلا عن ذلك، فإن البناء الهوياتي ليس توهما، إذ هو ذو فاعلية اجتماعية وينتج آثارا اجتماعية حقيقية "[12]. وعليه فكل هوية فردية تحمل خصوصية الهوية الاجتماعية، ذلك أن الهوية الشخصية هي "التي تشمل الأمور المميزة لشخص ما (كالمظهر والذكاء والشخصية)، والهوية الاجتماعية والتي تشمل جماعات عديدة ينتمي إليها الفرد سواء كانت هذه الجماعات جنسية أو اقتصادية أو عنصرية أو عرقية أو دينية أو سياسية..."[13].

الهوية الوطنية : وهي التي تعرف بوصفها "مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العاملة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يُعَرَّفون ويتميزون بصفاتهم تلك عمّن سواهم من أفراد الأمم الأخرى"[14]، أي إنها تلك الهوية التي ترتبط بالدولة، فتحمل سمات عامة وتتميز بصفات ترتبط بالدين واللغة والتاريخ في خصوصية ثقافية تختلف عن باقي الدول المشتركة معها في الدين واللغة والتاريخ المشترك.

ثالثا: الهوية الثقافية:

تعرف الهوية الثقافية بوصفها "ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحفظ لجماعة بشرية تشكل أمة، أو ما في معناها بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء"[15]، فهي إذن عملية تواصلية تشتغل على جدلية الأنا والآخر وفق مبدإ المثاقفة، فلا تكون بذلك معطى جاهزا، أو نهائيا بل إنها فضاء مفتوح للتلاقح بالاحتكاك مع الهويات الثقافية الأخرى، سواء أكان هذا الاحتكاك سلبا أو إيجابا، لذلك فالهوية الثقافية هي ذاك "الحد المكتسب من المعارف والتصورات والممارسات الفكرية لدى الإنسان في محيطه الاجتماعي، والتي تلقاها لمصلحته ولمصلحة هذا المحيط"[16].

كما تعرف كذلك بكونها "القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعا يتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى"[17]. وهذا ما يجعل عناصر الهوية الثقافية مبنيا على عدة عناصر هي: اللغة، والدين والتاريخ والقيم الاجتماعية.

رابعا: دور المضامين الثقافية في ترسيخ الهوية الجزائرية:

إن التطور الحاصل على الفكر الإنساني لاسيما فيما يشهده العالم من تحديات معلوماتية تكنولوجية، قد أسهم بصورة فعالة في انفتاح المجتمعات العربية والمجتمع الجزائري على صور ثقافية ومعرفية، تؤثر بشكل أو بآخر على خصوصية الفرد الجزائري في علاقته بمرجعياته الثقافية، ولعل المضامين الثقافية بصورتها المتوارثة والمرتبطة بالقيم الاجتماعية والدينية والأخلاقية للجزائريين هي ما ترتكز عليه الهوية الثقافية، سعيا لترسيخها في مجابهة هذه التطورات، الرامية إلى تماهي الحدود بين المجموعات الاجتماعية ومحاولة القضاء على الخصوصية الفردية، عن طريق التأثير فيما يتلقاه الفرد. ويمكن القول إن المضامين الثقافية هي التي تستند إلى مقومات الهوية، الدين واللغة والتاريخ والقيم، ويرجع دورها في ترسيخ الهوية الثقافية انطلاقا من الوسائل التي تتخذ في ذلك، كالتربية حيث إنها "ضرورية للإنسان وحاسمة بالنسبة له، لأن الكائن البشري لا يملك عمليا أي برنامج وراثي يوجه سلوكه، والبيولوجيون أنفسهم يقولون إن البرنامج الوراثي الوحيد للإنسان هو برنامج التقليد والتعلم، وبالتالي فإن الفروق الثقافية بين الجماعات البشرية تفسر في جزء كبير منها بالمنطومات المختلفة للتربية"[18]، كما أن للوسائل التأثيرية من خطاب إعلامي أو ثقافي (مكتوب أو مرئي) أو خطاب تفاعلي (الانترنيت) تأثير في ذلك، فنجد صدى تأثيرها على الفرد الجزائري في أبعاده المتعددة.

- **البعد الديني:**

يعد البعد الديني من أكثر العناصر الفعالة في بناء الهوية الجزائرية، فمنذ الفتح الإسلامي والجزائر تدين بدين الإسلام، وتعدّه من الثوابت الرئيسة والأساسية لهويتها، ولعل اختيار البعد الديني أول المضامين الثقافية لترسيخ الهوية الجزائرية، راجع بالأساس إلى أنه يشكل معتقدا دينيا واجتماعيا ونفسيا وتربويا وفكريا، يتجذر في الشخصية الفردية والجماعية، وهو من الأسباب التي جعلت الجزائريين يتحدون ضد المستعمر الفرنسي على اختلاف عرقيتهم عربيا كان أو أمازيغيا، كما أنه دافع أساسي للتعبير عن الخصوصية في مقابل الآخر. وقد كان للدين الإسلامي الفضل في خصوصية الفرد الجزائري ثقافيا، من حيث التنشئة والقيم التربوية، إذ إن المساجد والكتاتيب هي أول لبنات تشكل الهوية الجزائرية، فغالبا ما يكون إرسال الطفل الصغير قبل الالتحاق بمقاعد الدراسة إلى المدارس القرآنية في الكتاتيب والمساجد، لتترسخ في نفسية هذا الطفل مبادئ الدين الإسلامي من حيث حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وهذا ما يؤثر في حالة الطفل نفسيا وثقافيا، فنجد أن معظمهم يمتلكون ناصية اللغة العربية الفصيحة، كما أن الاعتزاز والفخر كلما أنهى الطفل حفظ لوحته واستظهار ما كان فيها لشيخه ينمي الاعتزاز والفخر بالانتماء لهذا الدين.

وقد كان للبعد الديني دور في احتضان الثقافة العربية في الجزائر الأمازيغية، إذ كان هذا التلاقح التاريخي مفرزا لجزائر اليوم. ذلك أن "الدين هو أهم عنصر يشكل المقومات الأساسية للمجتمع، وهو الذي يولد النظم الثقافية السائدة في المجتمع، إذ لا يوجد شيء ألصق بالثقافة من الدين"[19]. والخطاب الديني بما فيه من حمولات ثقافية رسخ مبدأ التنوع، فكان له الأثر البارز على الثقافة المادية واللامادية، حيث تمظهرت الهوية الثقافية الجزائرية في الممارسات، والتفكير، كالشعائر الإسلامية في الأعياد الدينية، فعاشوراء عند الجزائريين عيد له تقاليده الخاصة من حيث إخراج الزكاة في هذا الوقت، كما له عادات مجتمعية ترتبط بتحضيرات خاصة فيما يعرف في الثقافة الشعبية بالقشقشة*، وقد كان للبعد الديني

انعكاس في الأدب، انطلاقا من توظيفه في الخطاب الأدبي، شعرا ونثرا، فظهرت توجهات إسلامية في النصوص الإبداعية، كحال نصوص جمعية العلماء المسلمين، التي جعلت منها صورة للهوية الجزائرية، ومبادئ ترسخ قيمها فالإسلام عقيدة وممارسة، في المساجد والكتاتيب والزوايا، كما ظهر الخطاب الديني في النصوص الروائية المعاصرة لا سيما روايات العشرية السوداء كمساءلة للهوية وبحث عن حقيقتها في ظل اختلافات طالت المجتمع الجزائري في تلك الحقبة. ولأن الثقافة إنسانية، تخضع للتطور فهي تتأثر بالتطور الاجتماعي والتغييرات التي تلحق المجتمعات، لذلك كان حال الجزائري خاضعا لهذه التحولات، لكن ظل التشبث بالدين الإسلامي سمة بارزة لا يمكن التخلي عنها. حتى في ظل العولمة التي طغت على الهويات وحاولت القضاء على الخصوصيات، حيث " تستهدف العولمة ديانة وعقائد المجتمعات، ولعل الميدان الخصب للعولمة في المساس بحرية المعتقد والدين هو الحرب الاستدمارية على الشريعة الإسلامية، أو الحروب القائمة ضد الإسلام سواء عسكرية أو ثقافية أو إعلامية"[20]. لكن التشبث بالدين الإسلامي في الهوية الثقافية الجزائرية لا يعني أنه لم تحدث تغيرات فيها، حيث نجحت العولمة في التأثير على بعض المفاهيم المرتبطة بالدين الإسلامي في ظل الظروف التي عايشتها الجزائر، ولأجل المحافظة على الهوية من الانفلات إلى صورة مشوهة كان لابد من السعي إلى ترسيخ البعد الديني، من حيث تفعيل دور المساجد والمراكز الإسلامية والثقافية، ومراقبتها في ما يتم تسويقه إلى عقول الشباب والناشئة، لاسيما وأن هوة واسعة ظهرت بين الأجيال الجزائرية، بين الجيل القديم والجيل الحديث، بين الحداثيين والتراثيين، بل حتى إن المذاهب والطوائف الأخرى سعت إلى التغلغل خفية في بينة المجتمع الجزائري قصد التأثير في مفاهيمه، لتفريغها من محتواها الصحيح، وزرع مبدإ الشك في قيمه المتوارثة.

- **البعد التاريخي:**

يهتم البعد التاريخي بصنع الهوية الثقافية الوطنية من حيث ما يتميز به من أحداث تعزز الخصوصية في مقابل الآخر، وقد كان للبعد التاريخي في الجزائر دوره البارز في ترسيخ هويتها الثقافية، انطلاقا من التاريخ الأمازيغي وما يحويه من بطولات رسمت معالم الهوية الجزائرية، من حيث الشخصية، أو العادات والتقاليد، أو القيم، فكان الأصل الأمازيغي الذي يفيد معنى الأحرار الذين لا يقبلون الخضوع أو الخنوع مكونا رئيسا للجزائري الذي ما قَبِل الاستعمار يوما، ولا زال يدعو إلى حرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها، كما أسهمت العادات والتقاليد الأمازيغية المتوارثة في تحديد ثقافة الجزائريين، كاحتفال يناير، رأس السنة الأمازيغية والفلاحية، والتي يعود في تفسير البعض إلى واقعة تاريخية ارتبطت بمعركة بين الملك الأمازيغي ششناق والفراعنة سنة 950 قبل الميلاد.

وللتاريخ الحديث بصمته في الهوية الثقافية، من حيث ثورة التحرير الجزائرية، والتي انبنت على مبادئ وقيم ثورية تنطلق من رفض الاستعمار وسياساته الرامية إلى طمس الهويات واندثارها، فكان التركيز على استظهار الهوية وترسيخها هدفا رئيسيا، حيث إن "التراكم التاريخي ضروري لصنع الهوية الثقافية، لأنها في النهاية هي المستوى الناضج الذي بلغته المجموعات البشرية نتيجة تفاعل قرون طويلة بين أفرادها وبين الظروف الطبيعية والتاريخية، التي مرت بها ونسجت فيما بينها روابط مادية وروحية مشتركة، أهمها وأعلاها رابطة الدين واللغة"[21].

إن السعي لترسيخ الهوية انطلاقا من التاريخ يوحي بخصوصية الهويات في مقابل الهويات الآخرى، ولأن التاريخ بصمة خاصة لكل هوية، فهو حامل الذكريات والمفاخر، وهو انعكاس لأمجاد الماضي في إنجازات الحاضر وتطلعات المستقبل، كان الاهتمام بهذا البعد ثقافيا منذ اللبنات الأولى في حياة الفرد، من حيث الجانب التربوي، إذ تم تضمين الجانب التاريخي ليكون راسخا في الوعي الفردي والجمعي للجزائريين، مشكلا هويتهم الثقافية، التي تتوارث جيلا عن جيل، في تفاعل بين الماضي المجيد والحاضر المعيش، كما

كان لوسائل التواصل مكانة في ذلك، من حيث الاهتمام بالأعياد الوطنية والتذكير بها في كل فرصة، في وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة، والانترنيت من مواقع رسمية ومواقع تواصل إجتماعي، لكن وفي ظل ما يعايشه الجزائري في الراهن، فإن الحديث عن ترسيخ للهوية يشوبه قليل من الشك والاضطراب، نتيجة العولمة وتأثيراتها السلبية، الرامية إلى القضاء على الحدود، وفرض الهيمنة الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، عن طريق محاولة تفريغ الهويات من ثوابتها، لا سيما الدين والتاريخ، وذلك بالتشكيك فيهما وزعزعة التشبث بهما، وليس هناك أشد على الهوية من زعزعة عناصرها الثابتة، "وإذا كانت اللغة والتاريخ والقيم تشكل عناصر أساسية للحفاظ على الهوية، فهذا لا يعني أنها عناصر ثابتة لا تخضع للتطور، بل هي في حالة تفاعل مستمر مع متغيرات الثقافة، وتفاعل فيما بينها، فإذا كانت اللغة وعاء للفكر، فإن القيم هي الواقع أو التطبيق العملي لهذا الفكر، والتاريخ هو حياة هذا الواقع، أو هو العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع"[22].

إن هذه العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع، جعلت الهوية ليست ثابتة عامة، إذ تخضع لبعض التغييرات المرتبطة بالفرد والجماعة والبيئة والظروف، وإن كان لها عناصر ثابتة لا تتغير ولا تتطور ولا تحيد، لتعطي ماهية الفرد وحقيقته. وهذا حال الجزائري المرتبط بالدين الإسلامي، والتاريخ الثوري، ولا يمكن أن تتغير هذه العناصر مهما طال عليها الزمن.

- **البعد الاجتماعي:**

ويحتل البعد الاجتماعي مكانة بارزة في الثقافة، ذلك أنها " كنسق اجتماعي قوامه القيم والمعتقدات والمعارف والفنون والعادات والممارسات الاجتماعية والأنماط المعيشية"23 تتفاعل بين أفراد المجتمع لتشكل هويته الخاصة. ولعل ما يمكن الحديث عنه في البعد الاجتماعي هي تلك القيم، والعادات والتقاليد التي تميز الجزائري عن غيره، وإن كانت بعضها تتقاطع مع قوميات أخرى، ذلك أن الفرد الجزائري مرتبط بحقيقة كونه مسلما وعربيا

ومغاربيا وإفريقيا، غير أن تميزه الثقافي راجع بالأساس إلى أنه مجتمع له خصوصيته السوسيولوجية والسيكولوجية، التي تجعل من هويته الثقافية مختلفة في بعض النقاط عن باقي الهويات. والمجتمع الجزائري على مستوى تركيبته الاجتماعية متنوع ثقافيا نتيجة لما للجزائر من مميزات تختص بالجانب الجغرافي والفكري لكل منطقة، حيث تختلف بعض العادات بين الشمال والجنوب، أو بين الشرق والغرب، أو بين العرب والأمازيغ، لتكون اللغة من أهم ما يميز هويتنا الثقافية، من حيث الأصل الأمازيغي، والسعي للحفاظ على هذا الموروث لغويا وثقافيا، وذلك عن طريق تدريس اللغة الأمازيغية في المدارس، والإحاطة بالتراث الأمازيغي المادي واللامادي، ممثلة في الأدب الأمازيغي والفن والعادات والتقاليد، كاللباس والحلي، وأشكال التضامن والتكافل الاجتماعي كالوزيعة ويناير.

وقد كان للأدب الجزائري دوره في تبيان هذا البعد وترسيخه وفق آليات فنية ترسم صورة هذه الهوية، فعالجت النصوص الروائية الواقع الاجتماعي الجزائري بين الأمس واليوم، واستقرأت الوقائع التاريخية والاجتماعية وتطوراتها المختلفة بحثا عن استشراف مستقبل أفضل، يحوي جميع أفراد الوطن الجزائري على اختلاف توجهاتهم الإيديولوجية والسياسية والثقافية، لتتوحد في انعكاس هوية ثقافية جزائرية تنبع من الأصول، وتتنوع مع الانفتاح والتطور الذي يتحكم في الحياة والإنسان بصفة عامة.

خامسا: أثر العولمة في المضامين الثقافية:

تتخذ العولمة من الجوانب الحياتية للإنسان مجالا للتغلغل في المجتمعات، ومحاولة التأثير عليها لتصبح خاضعة لمبادئ العولمة ومتطلباتها، ولعل أشد الأنواع تأثيرا في هوية الأفراد هي العولمة الثقافية التي تتخذ من الثقافة وسيلة للانتشار، مرتكزة في ذلك على وسائل عديدة منها التكنولوجيا من حيث وسائل الاتصال أو الفضائيات أو الانترنيت، أو وسائل الإعلام سمعية أو مرئية أو مكتوبة، لذلك تعد "العولمة الثقافية أصل العولمات الاقتصادية والسياسية والأخلاقية، لأن الثقافة هي من تهيء وتمهد الناس للانضمام إلى

الهيئات والمؤسسات الثقافية الدولية والإقليمية، وخاصة أن هذه المؤسسات تسيطر عليها القوى والدول الفاعلة في العولمة والأطراف القوية فيها"[24].

ولعل شبكة الأنترنيت أكثر الوسائل تأثيرا على المضامين الثقافية، من حيث إنها "تتعامل مع جميع عناصر المنظومة الثقافية، سواء بوصفها – أي الثقافة- تراثا قوميا أو بوصفها إبداعا وتعبيرا، أو بوصفها منتجة للسلع والخدمات والأصول الرمزية، إضافة إلى ذلك فالشبكة تساهم في تشكيل وعي الفئات الاجتماعية، وتلعب دورا حيويا في تكامل منظومة الثقافة مع منظومات التربية والإعلام والاقتصاد"[25]، وعليه فإن لهذا الفضاء دور فاعل في التأثير على المضامين الثقافية سلبا أو إيجابا، إذ تتشكل سلبيته في محاولة القضاء على الخصوصية والهيمنة على الفرديات في مقابل التخندق في طرق الفكر الثقافي الغربي للقوى المسيطرة. أما دوره الإيجابي، فتعد الانترنيت من بين أفضل المجالات لتكريس المضامين الثقافية وإيصالها للفرد، كونها أكثر الوسائل المتاحة لكل الفئات الاجتماعية، في كل وقت أو مكان، كما أنها تعمل كقنوات تواصل وإيصال للمعلومات وما تحمله معها من إيديولوجيات، لتكون وسيلة متاحة للحقوق وحرية التعبير، ولأن الانترنيت "تجمع ما بين كونها وسيطا إعلاميا، وكونها ساحة لنقل بضاعة الثقافة، من مراكز إنتاجها إلى مناطق استهلاكها"[26]، لاسيما وأننا انتقلنا إلى ثقافة الصورة والوسائط التكنولوجية، ليكون العربي مستهلكا لكل ما يصدر إليه عبر هذه الآليات الحداثية، واستهلاكه منوط بدرجة تأثره بما يستهلك، وبدرجة وعيه لما يستهلك.

ولأن الفرد الجزائري معرض لتأثيرات البضائع الثقافية بوصفه مستهلكا، فقد يحدث تأثير على هويته الثقافية لاسيما وأن هذه البضائع تحمل خصوصيتها الشبيهة بالاستعمار، فهي بمثابة استعمار ثقافي جديد، يخضع فيه الضعيف للقوي، وفي خضم التطورات الحاصلة في المجتمع الجزائري لا سيما في السنوات الأخيرة، فإن للعولمة تأثيرها على المضامين الثقافية ومنه على الهوية كذلك، حيث إن الانفتاح على ثقافات العالم، والاطلاع عليها لم يكن

بصورة واعية بشكل يضيف إلى هوية الفرد الجزائري وينمي ثقافته، بقدر ما كانت تأثيرا حوّل المجتمع الجزائري في كثير من عاداته وتقاليده، في لغته وروحه، فنجد بعض العادات الدخيلة على المجتمع الجزائري مستمدة من ثقافات أخرى، كما يحصل في حفلات الزواج مثلا، إذ تم التخلي عن عادات متوارثة تتسم بهوية جزائرية لصالح عادات تقلد مجتمعات أخرى لاسيما الغربية كارتداء فستان أبيض للعروس بعد أن كانت قديما ترتدي لباسا جزائريا خالصا، كما أصبح التوشح بحزام أحمر فوق ثوب زفاف العروس مؤخرا عادة أدخلت إلى فكر ممارسات الجزائريين، وهذا ما أنتج لنا مجتمعا جزائريا مغايرا عن ذاك الذي كانه قبل عقود قليلة، له خصوصيته الهوياتيه من حيث كونه مجتمعا جزائريا، كما له نقاط كثيرة يشترك فيها مع المجتمع الدولي الخاضع لتحولات العصر في ظل العولمة وأهدافها، ليكون التنوع الثقافي في ظل هذا العالم القرية ليس إلا حقا للأنسان، كما أن الاختلاف حق يحفظ هذا التنوع وينميه ويضيف إليه، ولا يكون ذلك إلا عن طريق تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية، وانخراطها في هيكلة ثقافة إنسانية تعترف بالهويات الجماعية، وتكفل حق التأثير والتأثر وفق مبدأ التعايش السلمي.

الخاتمة:

تستند الهوية في حقيقتها إلى عناصر تحددها وتجعلها مغايرة عن باقي الهويات، والهوية الجزائرية هي كل ما يمكن أن يجمع مجموعة أفراد يستوطنون جغرافيا الجزائر ويتشاركون مجموعة من الصفات والعادات والتقاليد والمعتقدات والممارسات الخاصة بهم والمميزة لهم عن غيرهم، ولأن الوقت الراهن هو عصر العولمة وانفتاح العالم، فقد لحق تأثيره على الجزائر وهويتها في ظل التنوع الثقافي المحمول ضمن وسائل هذه العولمة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، مما استدعى المحافظة على الخصوصية الجزائرية في رسم معالم الهوية الثقافية، ضمن عدة أبعاد تمثلت في البعد الديني والبعد التاريخي والبعد الاجتماعي، حيث مازال الفرد الجزائري على الرغم من كونه مستهلكا للعولمة الثقافية لا منتجا لها فاعلا

فيها، يحتفظ بخصوصية هويته الثقافية في عناصرها الثابتة (الدين، التاريخ، اللغة) وإن شابها بعض التأثر.

للمضامين الثقافية دور بارز في ترسيخ الهوية وذلك لما لها من تأثير في النفس، عن طريق الوسائل المتاحة تكنولوجية أو فنية، ولعل الأدب من أكثر وسائل التأثير في الفكر الإنساني، وهو من قنوات تمرير المضامين الثقافية بصورة جمالية، ليكون رافدا من روافد تنمية الوعي وانفتاح الفكر، لهذا وجب الاهتمام بتنشئة الفرد الجزائري على المطالعة وتكريس مبدإ القراءة بوصفها عالما يفتح المجال أمام التنوع الثقافي والتعدد المعرفي في ظل تطورات تكاد تجعل الجزائري فردا مستهلكا لكل ما هو غير نافع مقارنة بنسبة قليلة لما ينفع الإنسان في محيطه الاجتماعي والثقافي.

لابد من تفعيل دور الثقافة الشعبية في ترسيخ الهوية الثقافية، كونها أقرب الصور لانعكاس حقيقة الإنسان وتفرده، ولأنها صنيعة الشعوب في ممارساتهم الحياتية المتوارثة، وما تداخل الأدب الرسمي مع الأدب الشعبي إلا من بين وسائل هذا التلاقح، الذي ينمي الجدور وينبت غرسا متميزا في فردانيته الهوياتية داخل منظومة عالمية، تسعى إلى فرض السيطرة أو الهيمنة للنموذج الغربي، بإفراغ التابعين له من هوياتهم لاسيما العناصر الروحية، ترويجا للماديات والآلات وإلغاء للفكر والإنسان.

الهوامش:

[1]– ابن منظور: لسان العرب، المجلد 9، دار صادر، بيروت، 1978، ص 19.

[2]– أبو عبد الرحمن الخليل الفراهيدي: كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دط، ص 139.

[3]– يراجع : محمد موسى شريف: الثقافة الآمنة، الأندلس الجديدة، مصر،ط1، 2011 ، ص 12.

[4]– أحمد أبو زيد: الحضارة بين علماء الانثروبولوجيا والاركيولوجيا، عالم الفكر، المجلد 15، العدد 3، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، الكويت، 1984، ص 733، .734

[5]– بيار بونت، ميشال إيزار: معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، تر: مصباح الصمد، المعهد العالي للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص 424.

[6]- عماد عبد الغني: سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2006 ، ص .27

[7]- مالك بن نبي : مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4، 2000، ص .74

[8]- مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء للطباعة والنشر، مصر، دط، 1988، ص 719، 720.

[9]- الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، دط، 1990، ص 278.

[10]- محمد مسلم: الهوية في مواجهة الاندماج، دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2009، ص .89

[11]- محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، دت، ص 23.

[12]- دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2007، ص 152، 153

[13]- أرثر أيزابرجر: النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم و رمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، العدد 603، 2003، ص 195.

[14]- أحمد بن نعمان : الهوية الوطنية، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، دط، 1996، ص 23.

[15]- محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية، عشر أطروحات، مجلة المستقبل العربي، العدد 228، 1998، ص 14.

[16]- إبراهيم حركات: الصراع بين هويتين ثقافيتين، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، دط، 1977، ص 55.

[17]- عبد العزيز التويجري: الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي، منشورات الأيسيكو، 1997، ص 15.

[18]- محمد حسن غامري: المدخل الثقافي في دراسة الشخصية، المكتب الجامعي الحديث، محطة الرمل، الاسكندرية، مصر، دط، 1989، ص 49.

[19]- أحمد بن نعمان: هذي هي الثقافة، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، ط1، 1996، ص 127.

[*]) القشقشة: وهي مصطلح يطلق على تشكيلة من المكسرات والحلويات والتمر تخلط مع بعضها البعض لتقدم في عدة مناسبات كالزواج وعاشوراء

[20]- زغو محمد: أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، 2010/4، ص 99.

[21]- شوقي رحيمة: "الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، العدد الحادي عشر، جوان 2013، ص .193

[22]- سامية عبد الرحمن: الثوابت والمتغيرات في الثقافة العربية، ضمن كتاب الثقافة العربية بين الوحدة والتعدد، في حوار المشرق والمغرب، مجموعة أبحاث، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007، ص .91

[23]- نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 265، ص 126.

[24]- زغو محمد: أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، ص .96

[25]- نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، ص 124

[26]- المرجع نفسه، ص 379.

قائمة المصادر المراجع:

1- أحمد أبو زيد: الحضارة بين علماء الانثروبولوجيا والاركيولوجيا، عالم الفكر، المجلد 15، العدد 3، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، الكويت، 1984.

2- أحمد بن نعمان: هذي هي الثقافة: دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، ط1، 1996.

3- أحمد بن نعمان : الهوية الوطنية، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، دط، 1996.

4- أرثر أيزابرجر: النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم و رمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، العدد 603، ط1، 2003.

5- إبراهيم حركات: الصراع بين هويتين ثقافيتين، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، دط، 1977.

6- بيار بونت، ميشال إيزار: معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، تر: مصباح الصمد، المعهد العالي للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2006.

7- دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، المنذمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2007.

8- زغو محمد: أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، 2010/4.

9- سامية عبد الرحمن: الثوابت والمتغيرات في الثقافة العربية، ضمن كتاب الثقافة العربية بين الوحدة والتعدد، في حوار المشرق والمغرب، مجموعة أبحاث، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007.

10-الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، دط، 1990.

11-شوقي رحيمة: الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، العدد الحادي عشر، جوان 2013.

12-عبد العزيز التويجري: الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي، منشورات الأيسيكو، 1997.

13-عماد عبد الغني: سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2006.

14-الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل: كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دط.

15-مالك بن نبي : مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط4، 2000

16-محمد حسن غامري: المدخل الثقافي في دراسة الشخصية، المكتب الجامعي الحديث، محطة الرمل، الاسكندرية، مصر، دط، 1989.

17-محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية، عشر أطروحات، مجلة المستقبل العربي، العدد 228، 1998.

18-محمد مسلم: الهوية في مواجهة الاندماج، دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2009.

19-محمد موسى شريف: الثقافة الآمنة، الأندلس الجديدة، مصر، ط1، 2011.

20-محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، دت.

21-ابن منظور: لسان العرب، المجلد 9، دار صادر، بيروت، دط، 1978

22-مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء للطباعة والنشر، مصر، دط، 1988.

23-نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 265